# مقدمة

## ماهيَّة الشعر وغايتُه



obeikandl.com

استعظم العربُ قديماً موهبة الشعر، وهالتهم فتنة اللغة الشعرية الموقعة: فادَّعوا أنَّ الشعر إلهام من الشياطين التي تأتي الشعراء من وادي عبقر، تستدرجهم من أخبيتهم، ووعيهم، ونومهم، وتتملكهم، وتلقي عليهم هذا القول الساحر الموقع الغامض الجمال.

واحتجَّ العرب في تأكيد زعمهم بوجود الشياطين الملهمة للشعر، بقدرة الشعر على التأثير، والتغيير. فالشاعر يستطيع بشعره فقط أن يهيّج النفوس ويثيرها للقتال والخصومة، وأن يثيرها للسلام يستطيعُ أن يوقظ الأحزان ويبعث الحنين. والشاعر قادرٌ على إقناع السَّادة المُمدَّحين ببذل المال، قادرٌ على ترويع الأعداء حين يهجوهم، وهو يستلبُ قلوب النساء بفنون غزله... ويحرك الطلل ويبعثه من ركام السنوات، ويستثيره ويستنطقه، فيخرج منه زمنه، وشجنه، ملامحه، ويستحضر من خلاله ملامح الماضي.

الشعرُ في الوعي العربي القديم أقربُ إلى السحر. وقد أكَّد بعضُ الشعراء هذه الفكرة، بممارساتهم، وطقوسهم أثناء إبداع القصيدة، أو إلقائها. فقد كان الشاعر الهاجي - في الجاهلية - يعمدُ إلى حلق شعره إلا من ذؤابتين، وينتعلُ نعلاً واحداً، ويغرب في اختيار ألوان ردائه، ويعمد إلى رسم ملامح وجهه بما يخيفُ؛ إيغالاً في إفزاع أعدائه، وإيعازاً لهم باتصاله بقوى غامضة يستمطرُ منها الغضب واللعنة عليهم.

قال بعض الشعراء مؤكِّدًا اتصاله بهذه القوى:

إنّي، وكلُّ شاعرٍ من البشر  شيطانُه أنثى، وشيطاني ذكر

وقال آخـــر:

إنّي، وإن كنتُ صغيرَ السِّن  وكان في العين نبوٌ عنّي

فإنّ شيطاني أميرُ الجـن  يذهبُ بي في الشعر كلَّ فن

كذلك كان الوعي الغربي القديم في نظرته للشعر، وتفسيره لطبيعته، وتهيُّبه من غموضه وأسراره، ندرك ذلك من خلال الطرح الأساطيري عند اليونان، حيث تعدَّدت الآلهة في هذه الأساطير، وانفرد كل إله بمقدرته على فعلٍ ما، أو إدارة أمرٍ ما في حياة البشر.

وكان أبوللو في هذا الطرح هو إله الشعر والطب والموسيقى، هو القوى الخفيَّة الملهمة للشعراء، والتي تُعادل شياطين وادي عبقر في الطرح العربي القديم.

إذن استقرّ في الوعي الإنساني قديماً اعتبار الشعراء فئة مميّزة من البشر تستمدُّ قوتها من فتنتها الإبداعية، وتستمد طاقتها القولية، وقدرتها على التأثير الغامض، من قوى خفية كونية.

- ساهمت هذه النظرة الاعتبارية إلى الشعراء في إحاطتهم بهالة من الغموض والخفاء والغرابة، فهم وفق هذه النظرة كائنات غائبة حاضرة، غائبة عن الواقع بانشغالها بالإلهام وإبداع هذا النمط القولي المثير، وهي حاضرة من خلال تأثيرها في الواقع، فهي تستعين بغيابها عن الواقع على إحساسها بهذا الواقع، تستعينُ بالشرود والخيال والعزلة على الاتصال بالواقع وكشفه، والتفاعل معه!
- والشعراء كائنات قائلة لا فاعلة، ولكنها تمارس الفعلَ من خلال القول، وهي توجّه من خلال هذا القول كلَّ الفاعلين في الحياة، تنظم (فعلهم)، وتثيره، وتمنحه الحماس والهدف، والمعنى، والإحساس. الشعراء كائنات غريبة وفق هذه النظرة.

ولذلك قام أفلاطون بطرد الشعراء من (جمهوريته)، ورفض أن يقيموا في مدينته الفاضلة، لأنّ الشعراء كتلة من الوجدان، وطاقة قولية سحرية غامضة، تبدو من الظاهر كائنات خاملة مسترخية في انتظار الإلهام الذي يدفعُ إلى مخاض الجمال، بما لا تحتمله مدينة أفلاطون، فالشعراء وفق طبيعتهم يُعدّون في رأيه عبئاً على الواقع لا إضافة إليه.

- تغيرَّت النظرة إلى الشعراء والشعر في ظل الإسلام، ففي عهد الرسول ﷺ أحاط الشعراء بالعقيدة الإسلامية، وأخضعوا موهبتهم للدعوة، وانطلقوا في ميادين قول جديد بعد أن استثارهم الرسول ﷺ، ومنحهم رخصة قول الشعر انطلاقاً من العقيدة، فعن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله هل سمعت النبي ﷺ يقول: (ياحسان أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: نعم) رقم[1].

وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: (إن من الشعر حكمة) رقم[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيب، ألا كل شيء ماخلا الله باطل، وقال ـ أي الرسول ﷺ، وكاد أمية بن الصلت أن يسلم) رقم[3].

---

رقم(١، ٢، ٣) تخريج الأحاديث ص(٢٧٩)

وعن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا يقول: بينما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقلت:

" هل أنت إلا إصبع دميت

وفي سبيل الله مالاقيت " رقم[٤].

وكانت مواقف الرسول هذه إيذاناً، وإعلاناً بقبول الإسلام للشعر الملتزم بمبادئه، الصّائغ بأنواره وقيمه.

○ وتضافرت الموهبة الشعرية مع العقيدة الصحيحة، فجاء الشعرُ منغماً بهموم المسلمين، وقضايا الدين، مستثاراً من هذا الوعي الجديد والعبء الجديد، لا من شياطين وادي عبقر.

وكانَ دعمُ الرسول ﷺ للشعراء، ومديحه لهم يؤكد قوة الشعر في هذه المرحلة ويؤكد أنّ الالتزام الديني والخلقي لا ينالُ من فتنة الكلمة، وتأثيرها الساحر في النفوس، هكذا ندرك من قول الرسول ﷺ وهو يثبّت أقدام حسان بن ثابت حين نزع إلى هجاء يهود المدينة: (اهج المشركين فإن جبريل معك).

فعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في يوم قريظة لحسان بن ثابت، اهج المشركين فإن جبريل معك) رقم[٥].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: استأذن حسان بن ثابت رسول الله ﷺ في إيذاء المشركين قال الرسول ﷺ ، فكيف بنسبي؟ قال حسان بن ثابت: لأسلتك منهم كما تسل الشعرة من العجين) رقم[٦].

وهكذا وُجّه الشعرُ وجهة جديدة في ظل الرسول، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، طارحاً وراءه التفسير الطوطمي، والنظرة الأساطيرية إلى قوى الإبداع.

ونعتقد أنّ الشعرَ مُنح في هذه المرحلة الكثير من الثقة في فعاليته وجدواه، وقدرته على الاتصال بالخير، والدفع إلى الحق.

○ وحين تطوّر الوعي النقدي في العصر العباسي، بحثَ النُّقاد، والمهتمون بقضايا الإبداع في منبع قوة الشعراء وإلهامهم مرة أخرى، وَطَرَح كلٌ رؤيته، وقال بعضُ النقاد إنَّ

---

رقم(٤، ٥، ٦) تخريج الأحاديث ص(٢٧٩)

مثيرات الإلهام هي: الرّهب، والرغب، والطرَب، والشراب.[1]

وقال آخرون إن مثيرات الإلهام هي الرياض المعشبة، والأماكن الخالية، وساعات السَّحر.

واللافتُ في هذه الآراء وغيرها، أنّ مثيرات الإلهام وبواعث التجربة الشعرية في هذا الطرح مستقلة عن كيان الشاعر، غير متصلة بالتجربة الشعرية ذاتها، بل هي أشياء خارجية تقع وراء وعي الشاعر، لكنها - في هذه الآراء - تُحرِّك الوعي.

- ومع تطور العلوم الإنسانية، تراجعت التفسيرات البدائية للإبداع عامّة، وللشعر خاصّة، وأكّد علم نفس الإبداع سذاجة الاعتقاد في شياطين وادي عبقر، أو الاعتقاد بمثيرات الإلهام التي طرحها نقاد العصر العباسي، مفسّراً قوى الإلهام، وتفجرها تفسيراً علمياً يثبتُ دور الواقع في استثارة التجربة، ودور التجارب الشخصية الذاتية الحادثة في هذا الواقع أيضاً.
- شياطينُ وادي عبقر في وجهة نظر علم نفس الإبداع هي هموم الشعراء بوصفهم ذواتاً متصلة بالوجود الخارجي، هي قضايا وجودنا الإنساني في جميع مستوياتها وأشكالها سواء منها الآني المتعلق بأحداث بعينها في الواقع، أو المطلق المتعلق بعموم علاقة الإنسان بالوجود.
- الشعر وفق هذا الطرح فعالية جمالية تنزع إلى المثال، إلى الاكتمال، إلى تجسيد الحاجة إلى الحق والخير والجمال، تجسيداً جماليّا مؤثراً، يدفع إلى ما هو أكثر من الإحساس، يدفع إلى النزوع إلى الفعل، إلى البحث عن هذه القيم، أو المبادرة بطرحها وإضاءتها، وتوجيه قوى الواقع صوبها.
- الشعرُ وفق هذا التفسير فعلٌ لكنه فعل إبداعي محرِّك للفعل الماديّ في الإنسان، لكنه على أي حال ليس حالة من الخمول والتراخي والتثاؤب انتظاراً لإلهام غامض قادم من شياطين مُنترضة غامضة في وادٍ مُتخيل مفترض هو وادي عبقر.

الشعر في وعينا الجديد مُلهم من شياطين مُعيّنة مُسمّاة مرئية، مُلهم مُستفز من قضايا الواقع الإنساني المجبول على النقص ابتلاءً من الله ليحثه على طلب الكمال.

---

(١) من أصحاب هذا الرأي ابنُ قتيبة في كتابه الشعر والشعراء.